شاعر زاهـد من العصر الاموي
عبدالله بن عبد الاعلى الشيباني

الدكتور نوري حمودي القيسي
عميد كليـة الآداب ـ جامعة بغداد

يكـاد يكون الفرزدق الشاعر الاموي الـذي استغرق مدائحه عبدالله بن عبد الأعلى الى جانب الخلفاء الامويين ، فقد مدحه في خمس قصائد ويكنيه بأبي عبدالملك وينسبه الى مرّة من بني شيبان ، ويؤكد ان والده كان من ضمن الذين ارتهنهم كسرى على أثر يوم ذي‌قار ·· وان هذه المكرمة كانت موضع اعتزاز الفرزدق وهو يذكر هذا الصنيع وقد عمت نعمته على ذهل بن شيبان الذين كان لهم الفضل في هـذا اليوم الخالد ويضعه في عليـة شيبان حيث ينتمي لمجـد وفي بيتها الاعلى(١) · ويؤكـد وجوده (بجابية الجولان) · وان اشارات الشاعر تؤكد أفضاله الكثيرة عليـه لانه كفـاء امورا لم يكن ليطيقها الا الكامل ابن الكامل ويؤكد قصـة رهن والده ، وهـذا ما جعله من أفضل شيبان لهـذه المكرمة(٢) · ويعدد مكارم أمجاده وبيوت العلى التي ينتمي اليها الحوفزان والمثنى ومسعود بن قيس بن خالد وغيرهم ممن أبلوا البلاء الحسن وأساموا الذل أبنـاء فارس(٣) · ويذكر له انه سيقدم له في كل عام قصيدة(٤) اكراما له ·

---

(١) الفرزدق · الديـوان : ٢ـ٩ـ١١
(٢) الفرزدق · الديـوان : ٢ـ١١١
(٣) الفرزدق · الديـوان : ٢ـ١١٢
(٤) الفرزدق · الديـوان : ٢ـ١٩٥

ان هذه الصورة التي يقدمها الفرزدق لهذا الشاعر ومهما تكن المبالغة عند الشعراء ، تكاد تفقد بريقها في الاخبار التي ذكرت عنه في بقية المصادر الا بعض الصفات .. فالطبري يذكر ان خالد بن الوليد وجد (أبا عمرة) جدّه في السنة الثانية عشرة في بيعة في (عين التمر) ومعه أربعون غلاما وعليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهُنٌ ... فقسمهم في أهل البلاد وكان أبو عمرة جد عبدالله بن عبد الاعلى الشاعر واحدا منهم فصار لشرحبيل بن حسنة(٥) . ويذكر الطبري أيضا ان أخاه عبدالصمد بن عبد الاعلى الشيباني كان مؤدبا للوليد بن يزيد(٦) .

ويبدو ان حظوته ومنزلته لدى الوليد بن يزيد ـ وهو القائم بعد هشام ـ قد أغاضت قلوب حاسديه وحملتهم على تلفيق التهم ضده حتى اتهمه صاحب لسان الميزان في دينه(٧) . وبعث هشام بن عبدالملك به وبأخيه عبدالصمد الى يوسف بن عمر فدفعهم يوسف الى محمد بأنه فطّن عليهم الا بمقدار ما يدخل عليهم من الطعام فاطعمهم ولم يسقهم ، فلما أجهدهم العطش صاحوا : ياسميّ رسول الله .. انا مسلمون ألا ترى ان اسم أبينا عبد الاعلى وأسماؤنا عبدالله وعبدالصمد .. وانما قالوا ذلك لأن هشاما بعث بهم الى يوسف على انهم زنادقة وأراد بذلك (التشنيع) على الوليد ، كما يقول الجاحظ(٨) . ولابد أن ينظر الى عبارة الجاحظ الاخيرة التي تعبر عن الغرض الذي كان يختفي وراء هذا التشهير المقصود لاسباب لا تخفى على المتابع .

وعلى الرغم من تأخر هذه الرواية التي تناقلتها بعض كتب الادب ،

---

(٥) الطبري . تاريخ الملوك : ٣ـ٣٧٧ وسط اللآلىء ٢ـ٩٦٣

(٦) الطبري . تاريخ الملوك ٧ـ٢٠٩

(٧) لسان الميزان : ٣ـ٣٠٥

(٨) الجاحظ . البرصان والعرجان : ٨٢ـ٨٣ .

الا ان حياته تؤكد غير هـذه الحقيقة .. فعمر بن عبدالعزيز الذي عرف بزهـده وتقواه وصلاح دينـه ودنياه وسلامة سـيرته واقتدائه بالخلفاء الراشدين رضوان الله عليهـم ، يختـار الشاعر ويوجهـه الى (أليون) بمرعش ليدعوه الى الاسلام .. ويذكر العنسي الذي رافقه في هـذه الرحلة الى أن عبدالله قبل أن يتكلم حمد الله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب في القول وكان مفوّهاً(٩) .

وكان عمر بن عبدالعزيز كثيرا ما ينشد شعره حتى اختلطت نسبة ابيـات الشاعر بنسبتهـا الى الخليفـة عمر بن عبدالعزيز لكثـرة ما كان يستشهد بـه من أشعاره(١٠) . ولم تقتصر صحبته عـلى الوليد بن يزيد الذي عدّ من خاصته وانما كان من جلساء خلفاء بني امية فقد جالس عبدالملك بن مروان وعزّاه بوفاة بنيـه(١١) . ولما توفـي أيوب بن سليمان بـن عبدالملك في حياة سليمان وكان ولي عهده وأكبر ولده رثاه عبدالله وكان من خاصته(١٢) . واجتمع عنـد مسلمة بن عبدالملك ناس من سمّارة فيهـم عبدالله بن عبد الاعلى الشاعر فقال مسلمة ائتني ببيت قالته العرب أوعظ وأحكم فقال عبدالله قوله ...

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد(١٣)

وتتضح حقيقـة زهد الشاعر من بقيـة الشعر الذي احتفظت بهـا المصادر وهي تذهب في مذهبها هـذا التوجه وتدخل في اطار الافكار التـي

---

(٩) المبرد : الكامل : ٢ـ٤٥٣

(١٠) المبرد . الكـامل : ٢ـ٥٩٢ والبكري في السـمط ٢ـ٩٦٢ ، ٩٦٣ والعمـدة ١ـ٣٧

(١١) البصري . الحماسة البصرية : ٢ـ٣٢

(١٢) ابن عبد ربه . العقد الفريد : ٣ـ٢٥٧

(١٣) أبو الفرج . الاغانـي : ١٦ـ١٥٧ (بولاق) مصورة ١٩٧٠ والبيت لدريد بن الصمة

يتمثل بهـا في المواقف الانسانية الضعيفة وحين يشعر الانسان بأن المطامع تذل أصحابها وان مصير كل بني أمّ الى الموت وأخلاق الجديد شيمة الايام، وان مصير الكثرة الى القلة في كل حال .. وهي أفكار كان الشاعر يبثهـا في قصائده ويعبر عنها من خلال نظرته الى الدنيا وعزوفه عنها وهي مرحلة تؤكد قرب أفكاره مـن أفكار الخليفة عمر بن عبدالعزيز . ولم نجد للصورة التي ترددت في بعض ما اتهم به عند الفرزدق الذي ظل الشاعر عبدالله رمزا من رموز ممدوحيه الذين وجد فيهم النموذج الذي أفاض في الحديث عنـه بمـا يستحق ومجدّه دون غيره بمـا يناسبه ، وأضفى عليـه من صفـات الشجاعة والبطولة والنسب ما تنأى به عن هذه التهمة .

ويذكر صاحب السمط ، ان عبد الاعلى من المحدثين يروي عنـه خالد الحذّاء وغيره(١٤) .

أما شعره فتذكر المصادر انـه كثير وعامتـه في الزهد(١٥) . ويذكر الجاحظ ، ان بنـي عبدالاعلى الشيباني مـن الشعراء الخطباء(١٦) . وقال عنه صاحب لسان الميزان . وعبدالله كثير الامثال في شعره انفذ أكثر قوله في الزهد والمواعظ(١٧) . وهو شـاعر من الشـعراء الابيناء ، مسامرته حسـنة ، ومعاشرته جيدة ، ومذاكرته نافعة ، وقد عرف بمروءته . وتدل أقواله عـلى تجربته في الحيـاة ومعرفته بأحوالها وخبرته في وقائعها وأحداثها .. فقـد سأله عبدالملك بن مروان يوما عن أكرم العرب فقال : من يحب الناس أن يكونوا منه ولا يحب أن يكون من أحد (يعني بني هاشم) . وحين سأله

---

(١٤) البكري . سمط اللآلىء : ٢ـ٩٦٧ وهامش البيان والتبين : ١ـ١٤٨

(١٥) البكري . سمط اللآلىء : ٢ـ٩٦٧

(١٦) الجاحظ : البرصان والعرجان : ٨٢

(١٧) لسان الميزان : ٣ـ٣٠٥

عن الأم الناس قال : من يحب أن يكون من غيره ولا يحب غيره أن يكون منه . ولما رؤي والناس يتحامونه كما يتحامون البعير الأجرب سئل عن ذلك فقال : اتهمنا القوم في سريرتنا ولم يقبلوا منا علانيتنا ومن وراثهم ووراثنا حكم عادل .. وقيل لبعض العلماء من اسوأ الناس حالا قال : عبدالله بن عبد الاعلى الشيباني القائل عند موته .. دخلتها جاهلا وأقمت فيها حائرا واخرجت منها كارها يعني الدنيا(١٨) . وعلى الرغم مما تحمله هذه المقولة من حيرة الانسان وموقفه من الحياة الا انها تؤكد انصرافه الى الزهد واستغراقه في أغراضه التي تمثل خطا واضحا في هذا العصر وبداية متميزة لهذا النوع من الشعر في العصر الاموي ، ويمكن أن يمهد لدراسة هذا الضرب من الشعر في العصر العباسي بعد أن تشعبت أغراضه واختلطت فيه أسباب كثيرة وتداخلت في معانيه أفكار غريبة ومواقف مختلفة .

ولم أجد اشارة لترجمة عبدالله في كتب التراجم الادبية المطبوعة ، ولكنني وجدت في تكملة الشعراء الذين ذكروا في معجم الشعراء ولا يوجدون في المخطوط الذي الحقه المحقق الفاضل في الكتاب ، ان ياقوتا نقل عن المرزباني في معجم الادباء في الجزء الثالث في الصفحة (٣٠٥) ولم أجد ذكرا للترجمة في طبعتي معجم الادباء ، في حين ان صاحب ميزان الاعتدال أشار الى الترجمة في الجزء الثالث وفي الصفحة (٣٠٥) وهو عين ما ذكره المحقق الفاضل . ولعل وهما في النقل أدى الى هذا الخلط ، ومع هذا فان الترجمة القصيرة والمتيسرة التي أوردها صاحب ميزان الاعتدال هي الوحيدة التي لا تقدم أية معلومات عن الشاعر الذي كانت له مجالسه المعروفة ومكانته عند الخلفاء الامويين كما أسلفنا، وتبقى المقطعات القصيرة والابيات المختارة هي الظلال الوحيدة التي يمكن التعرف من خلالها عن بعض جوانب هذا الشاعر الذي أكدت الاخبار انه كثير وانه من الشعراء الخطباء وكثير الامثال في شعره ، وهو من الشعراء الأبيناء .. ان هذه

---

(١٨) الجاحظ . البيان والتبين : ٣ـ١٤٨

النتف المتباعدة لم تترك لنا أشلاء ترجمة يمكن اعتمادها أو بقية أخبار تكشف عن حياته ٠٠ ومع هذا فان ما يمكن أن يكتب عنه لا يخرج عن حدود الابيات الملتقطة والمتباعدة التي لا يمكن أن تعبّر عن حياته الحافلة بكل مجد افاضه عليه الفرزدق وبكل لون من ألوان الزهد الذي أصبح عامة شعره فيه وأنفذ أكثر قوله فيه وفي المواعظ ٠

لقد أوشكت أن تصبح القصة طريقا معهودا ، وشكلا مألوفا ، واتساقا محددا في الشعر ، لانها توحي في كثير من صيغها بهذه الاشكال ، وتؤكد في كثير من جوانبها هذه الافكار ٠٠ فالموضوع الذي يتطرق اليه الشاعر رسمت أبعاده في ذهنه رسما واضحا ، وتحددت مسالكه من خلال تعابيره والفاظه تحديدا واضحا ، واتخذت قوالبه الصيغ التي وضعت لها ٠٠ فالافعال التي يستخدمها متشابهة ، وحروف العطف التي تتوالى تأخذ تسلسلها المنطقي ، والتدرج الذهني الذي أصبح وضعه مألوفا ، والالوان المستخدمة عند كل صورة تقترب في اشراقها اقترابا متطابقا ٠٠ ولعل متابعة ألواح الطلل عند الشاعر الجاهلي ، والصيد تكشف بشكل واضح عن هذا التشابه الحدي والتوافق القصصي والتناسق الشكلي في كثير من الزوايا والابعاد والحركات والاحاسيس وفي اطار هذا البحث يدور الحوار المفتعل الذي كان يحاوله الشاعر من خلال تجسيد صورة المرأة التي تحدث عنها في مجالات مختلفة ، ووقف منها مواقف متباعدة من أجل الحديث عن نفسه ، فقد اتخذ منها لائمة وعاذلة ومعاتبة ، واستطاع أن يدخل الى نفسه من خلالها ليبدأ حواره الذي يسط فيه فلسفته ، وأكد فيه نزعته ، وتحدث عن فلسفته ونزعته بما يوافق حياته وطموحه ومستقبله ٠

فالقصيدة العربية تعد بناء قصصيا متكاملا توافرت فيها كل أطراف القصة وتوحدت في أشكالها كل الضروب الفنية والقدرات الادبية التي دفعت بعض نماذجها الى التفوق فحملت أشكال القصص وابداعات المؤلفين

الذيـن لونوا كل قصـة بما يجعلها قادرة عـلى الاداء وفق العطاء الفردي والالتزام الفنـي ·

فالادب العربـي يمثل نمـاذج كبيرة في كل باب واشكال تقليدية في كـل فن ، وان هـذه الابواب يمكن حصرها في اطار مجاميع محددة ، وان الفجوات التـي كانت تترك هي مـن حق الشاعر الـذي يستطيع الدخول ليضع نفسه في الموضع المناسب، وليستطيع أن يختار لنفسه من الاغراض ما يؤهله لاشغال هـذا الموضع ، وان الصورة الفنية التي ظلت تملأ عليهم حياتهم كانت ثمرة من ثمار العقل العربي المبدع ، وقدرة خلاقة من قدرات الامة التي امتدت جذورها في التاريخ عميقة حتى استطاعت أن تضع لنفسها في كل مجـال قاعدة ، وفي كل فن ركيزة ، وعند كل فكر موقفا · وقـد ظل الادب العربي يحمل هـذا الابداع في وحدة القصيدة التي تمثل وحدة الفكر وفي اللغة التي تمثل وعاء الامة الذي حفظ لها وجودها · وفي الكتابة التي جمعت أطرافها على طريق واحد ، وفي ترابها الذي ظل يمثل انشودة الحياة ، وفي حسها الذي يرسم لها طموح المستقبل المشرق ·· في مبادئها وقيمها التي تعطي الحياة روح الحركة وعطر الوفاء وقيمة الانسان ·

وتأخذ مقدمات قصائد الاضياف جانبا واضحا من الحوار القصصي، وهو جانب يتمثل بالضيف الذي يلجئه الضلال عـن الطريق ليلا ، وجهد المسير الى ان يتكلف نباح الكلب وحكايته ، لتجاوبه كلاب الحي، فيهتدي اليها بصياحها ، ويستعين بها على ضره وحيرته · ويؤكد الشاعر بأن الليلة من ليالي جمادى ، لانها مـن شهور البرد والمطر ، كما يؤكد شدة ظلمتها وامتداده، وتكامله وتراكمه، (لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا) (١٩) · وان الصدى يستتيهه الى كل صوت يدركه ، ويستخدم الشعراء في هـذه الحالة · (ومستنبح بعد الهدوّ دعوته) ·

---

(١٩) من قصيدة لمرة بن محكان في حماسة أبي تمام (المرزوقي) ٤ـ١٥٦٣

ان هـذه الصيغة التي افتتح بهـا الشعراء مقطعاتهم ، تؤكد التزام الشعراء بهـا ، والتحدث باطارها ، والحرص على الشكل الذي استخدمت فيه ، كما ان الصياغة التي أعقبت هذه العبارة، كانت صياغة متقاربة من حيث الشكل ، ومتفقة مـن حيث الاداء والمعنى والدلالة ، وهـذا يعني ان هيكلا من البنـاء الموحد في المعنى والاستخدام والتوافق كان يسـود الجو الشعري ، ويفرض وجوده على الشاعر ، وهو يعالج موضوعا أو غرضا ·· واذا حاولنا متابعـة الظاهرة وجدنا ان الصورة التي رسمت في النموذج الشعري لعبدالله بن عبد الاعلى تظـل صورة تهدي بقيـة النماذج ، وترشد الشعراء الى اقتفائها ، وتدلهم عـلى المعالم المتبقيـة التي تترك عـلى وجوه قصائدهم معالم الالتزام الفني في هذا البناء ·· وكثيرا ما يجد الشاعر في حديث الليل ما يسري عـن نفسه ويدفع عنهـا همومها الكثيرة ، فالنهـار يعيد عليـه خوف الاعادي والليل يثقل عليـه بكاءه ورصد المنايا حتى يأتي على ذكر (رفعت له حمراء أخرق نورها) (٢٠) · فالنار هنا أصبحت علامة من علامات الاهتداء ، واشارة من اشارات الشعراء اذا أرادوا أن يتحدثوا عن هذا الموضوع ·· ومن الطريف هنا أن يلتزم الشعراء في هذا الموضوع (البحر الطويل) لاسباب قد تدخل أحيانا في قدرة البحر عـلى استيعاب الصورة واتساع مقاطعه النغمية لامتداد المعنى المطلوب ·· كما انهـم ظلوا حريصين عليه حتى في القصائد التي جردوا فيها النساء للومهم على الانفاق أو الكـرم أو الجرأة والمغامرة أو الموضوعات الاخرى التي استحدثوا فيهـا صيغ الحوار · ولعل أرجح الاسباب وأفضلها يعود الى حرصهم على ابقـاء الصورة التقليدية خاضعة حتى في الوزن ·· وهذا جانب فني يؤكد متابعة الصورة والحرص على استيفاء معظم أجزائها واستكمال أبعادها الفنية اطارا وبنـاء وتركيبا ·

---

(٢٠) الحماسة البصرية : ٢ـ٢٣٨

ان محاولة الشعراء تقليد الصورة الفنية المتعارف عليها ، لم تمنعهم من ابراز قدراتهم الفنية، ولم تحل دون ايضاح احساسهم الدقيق وابداعهم المعبر ، فالنار التي حرص على ايقادها الشعراء ، ليهتدي بضوئها من كده الزمان في سفره ، أو لم تساعده الحال على مؤنته ، فاستنبح كلاب الاحياء لم تكن لونا واحدا أو صورة متشابهة ، فهي نار أوقدت بغلاظ الحطب وكبارها ، فكانت شديدة الاتقاد، أو شقراء مثل الفجر لصفائها، واشتداد حمرتها ، أو هي مرفوعة أو مهيجة، ليبصر ضوءها ، أو مشبوبة في رأس جبل مرتفع مقابل لسمت الضيف ليدعوه اليه ، أو حمراء يخرق نورها قميص الدجى ، كما جاءت في حديث الشاعر أو وردية اللون وقد تطاير شررها حتى تميز بعلامتها رداء الافق ، أو حمراء كأن فروعها ذرى راية في جانب الجو تخفق ·

ان هذه الصور الملونة للنار ، وهذه الاوصاف التي وصفت بها للتدليل على ارتفاعها وانتشارها وسعة رقعتها كانت المجال الفني الذي حاول الشعراء أن يبدعوا فيه ، لاظهار قدرتهم في ابراز صورتها، وايضاح أهميتها ، وتأكيد توقدها ، وقد اتخذوا من هذه الصورة رمزا من رموز الكرم ، ومظهرا من مظاهر الاعتزاز ، ومجالا من مجالات القدرة على العطاء أو الاشتهار به، أو التميز بمظاهره · فمحاولة الاقتداء بالهيكل العام لهذا الغرض ، والالتزام بالبناء الفني لم يقتصر على الاطار العام للبناء ، وانما ظل الشاعر يتابع جزئياته بدقة ويساير أشكاله بمهارة ، ويدور في دائرته بانتظام ·· فالصورة التي بدأها بالاستنباح ، وتابعها باشتعال النار كانت بداية لحوار مستمر يبدؤه الشاعر ثم يعقب عليه بقوله (فحييت) وهي اشارة للضيافة واستقبال للضيف وترحيب يبعد عنه هذه الهموم وينقله الى عالم تتوافر فيه أسباب الراحة ودواعي الطمأنينة · ثم يستمر الحوار في مجموعة من الابيات(٢١) · أو يستمر على لسان

---

(٢١) الحماسة : ٤ـ١٦٢٧ ، ١٦٢٨

الشاعر الذي يأخذ مجالا جديدا في استكمال عملية الكرم والاعداد له والترحيب بالضيف واستقباله(٢٢) . والقيام بصورة مستعجلة حرصا على اصلاح أمره، وتوطيد محله، واغتنام خدمته لئلا يبادر اليه غيره فيفوز به ويستخدم الشعراء الفعل (حييت) وهو مقترن بالفاء(٢٣) . وقد استبطن سيفه(٢٤) أو قام بنصله(٢٥) ، او بأبيض مصقول خطت حديدة جفنه في الارض(٢٦) .

ويحرص الشعراء على أن يكون السيف وسيلتهم في الذبح ، والابل ساكنة عظاما ، باركة بالفناء ، كريمة بيضا هاجدة ، أعدت لواجب حق ، وهيئت لتكون زادا للضيف ، ثم تتسلل الحكاية تسللا قصصيا تتوالى فيها الافعال تواليا منسقا ، وتتعاقب حروف العطف تعاقبا متصلا من حيث الاداء والعمل والربط ، لتأخذ الحكاية صورتها ، ولتؤدي الافعال معانيها ودلالتها لتصل الى النموذج الاخلاقي الذي بنيت عليه الحكاية ، وحددت الادوار .. فالشاعر يسعى الى اكتساب الحمد بالمال ، ويبالغ في تفقد أضيافه ، ويسترخص الحمد الذي يجلبه الاكل ويكسبه الطعام ، ويؤكد ان اطعام الضيف حق ودين يرثه الابناء عن الآباء ، ويأخذه الخلف عن السلف(٢٧) . ويباهي بأهل الكرم وطيب ارومته، وتعظم الالتزام به .

ان تسلسل هذه الحكايات واتفاق صيغها، وحرص الشعراء على أداء المعنى وفق ما يقتضيه البناء ، يشكل التزاما قصصيا واضحا، وحوارا

---

(٢٢) الحماسة : ٤ـ١٦٤٣ ، ١٦٤٦ ، ١٦٢٨، ١٦٩٨ والمفضليات ٢ـ١٢٦

(٢٣) الحماسة : ٤ـ١٥٥٩ ، ١٥٦٦ ، ١٥٩٦ ، ١٦٤٩ ، ١٦٩٨ والحماسة البصرية ٢ـ٢٣٧

(٢٤) الحماسة : ٤ـ١٥٦٦

(٢٥) الحماسة : ٤ـ١٦٤٨

(٢٦) الحماسة : ٤ـ١٦٩٨

لحكايات كانت أحداثها تدور في نفس الشاعر، ووقائعها تتجلى له في حياته التي يمارسها في كل وقت، ويؤكد وجود صيغ أدبية مرسومة، وأطر فنية واضحة، يقف عندها الشعراء وهم يقدمون على معالجة الموضوع ، ويأخذون بها وهم يؤدون مهمة المباشرة ، وهذا يعني أن سردا قصصيا ، وامتداد حوار داخلي كان يتجاذب أطراف الاحاديث في دخيلة الشاعر، فينصرف الى معالجته، ويأخذ به نفسه التزاما بالصيغة، وحرصا على الاداء وتشخيصا للعناصر الفنية التي كانت تأخذ أدوارها في الحكاية المتمثلة في أشخاص الضيوف، وأصوات الاستنباح، وعبارات الاستقبال والترحيب والاكرام، والقيام بعجلة الى الكوم الهواجد، وحركات الجازرين والجو النفسي الذي يسود العملية بعد الاطعام والارتياح الذاتي الذي يستشعره الشاعر وهو يطعم جائعا ويؤدي واجبا، ويقضي حقا، ويحسن الى انسان أجهده السير وأتعبه الطريق، وأظلته الظلمة الحالكة ·

والشاعر في القطعة الاولى يقدم الصورة كاملة متأثرا بهذا البناء المتكامل ومقلدا اولئك الشعراء الذين وجدوا في هذه الصيغة بناء فنيا متكاملا فارتسموا خطاه وساروا على طريقه، وهي اشارة تؤكد قدرة شاعرنا على هذا النهج الذي واكب به الشعراء ، وقد أوفى متطلبات هذا البناء الشعري وتعد هذه القطعة من النماذج المتقدمة في هذا الغرض الشعري ·

ولعل الحوار الذي يكتنف بعض قصائد الشعراء ، والذي يأخذ طابع البساطة في بعض الاحيان، هو حوار لا يخرج عن نطاق المساجلة الآنية ، والفكرة المؤقتة والتأثر الذاتي ، ولكنه يمثل اتجاها قصصيا ، ومجرى حوار كان يأخذ بعده في الواقع الشعري ويرسم ملامح توجهات قصصية معروفة ، وربما كانت هذه الملامح صورا لتيارات لم تبرز بشكل واضح في هذه المقطعات · وقد يكون الحوار طويلا تنبعث منه فلسفة الشاعر، وتبرز من ملاحمه قدرته الخلقية ، وتأتلق من خلاله ملامح الاصرار الذي دفعه الى هذا السلوك ·

أما حديث الزهد ، فقد كان السمة الغالبة على شعره ، وهي حالة تنبيء بالعزوف عن الحياة والتخلي عن متعها والانصراف الى التفكير في الآخرة والدعوة الى الابتعاد عن الطمع والتنزه عن الحرص عليه لأنه مهلكه فالحياة لها قرارها في البقاء والفناء وكل اجتماع يفضي الى فرقة وكل لقاء ينتهي ببعاد ، وهي أفكار كانت تتسرب في أحاديثه وأبياته وقد حمله هذا التفكير على أن يجد في بعض قصائد الرثاء تفريجا لما كان يريد أن يعبر عنه وتسريبا لافكاره التي كانت تعاوده وهو يمر بتجربة الحياة ويرى ثقلها ويعيش حلوها ومرها وينعم بسعادتها ويشقى بشقائها ·· ان هذا التفكير قد أخذ نصيبه من شعره ويمكن اعتماد قصيدته الرابعة في تحليل أفكاره لانها جمعت ما كان يسعى اليه وهو يعلل فلسفته في هذه الحياة ودعوته الى التمسك بكل ما يجعل هذه الحياة زادا لآخرته وعملا صالحا لما يثاب عليه ، وقد وجدت هذه الافكار في نفس الخليفة عمر بن عبدالعزيز مكانتها فكان يردد انشادها لما يتلمس فيها من تجاوب ويشعر به من تبصير بالمآل الذي ينتظر البشر وتذكير بالنهاية التي لا ينفع فيها الا العمل الصالح ·· فالامل الذي ظل يراود البشر في استمرار الحياة وقد استظل به الناس لا يدوم ، لان الفزع المنتظر سيطوي أحلام هذا الامل ·· وان هؤلاء الناس الذين يخافون الشمس والغبار وما يتركانه على جسم الانسان ويألفون الظل لتبقى بشاشتهم ناعمة سيسكنون الاجداث في قعر موحش وغبراء مقفرة، يطول بها المقام ويمتد تحت ثراها اللبث ·· انها الصورة التي لازمت الشاعر وتركته قلقا لا يستقر على حال ، وحملته على أن تظل الحيرة وجها من وجوه التساؤل الذي تفقده الراحة ، فالروح والجسد ، وخمود النفس وسكون الانسان كانت تتراكم في وجدانه صورا مرعبة وأفكارا مخيفة وأصواتا لا ترى الا الراحة في الموت والاستسلام للقضاء وتبدو في بعض مقطعاته صورة الدعوة الى ترك الضغائن ونبذ الاحقاد والدعوة الى التوحد والابتعاد عن التفرق · ويؤكد هذه الصورة من خلال الامثال

التـي يعتمدها ، وتنتهي هـذه الدعوة الى الاشـــادة بالتواصل والتراحـم والتوادد (تنظر القطعة رقـم ٦) . وتظل هـذه النغمة واضحة في شـعره متميزة في أفكاره وهو يرددهـا ومفردات الزهد والوعظ تتكرر في شعره ، (فالنهار سـهو وغفلة) و (الليل نـوم) و (الردى لازم) و (السرور بما يبلـي) و (الفرح بالمنى) و (الحالم مغرور بالذات) و (الانسان حائر) (فليس هو من الايقاظ) و (لا هو من النـوّام) و (الذاهبون لا نعرف أخبارهم) و (المرء دين للمنايا) (وماذا ينفع بقـاء الفرع اذا ذهب الاصل) .. ان هذه الصور تعيش في وجدان الشاعر حسًا ووجودا ويعبر عنها شعرا وحديثا ويتمثل بهـا في مجالسه . وتبقى الاسباب التي أحاطت به أو غيرته غير معروفة . ولعلّ ما ذهبت اليه بعض الروايات من اتهامه بدينه أو الصاق بعض التهم به حملته على أن ينقطع عن الدنيا الى الآخرة وينصرف عن الناس الى نفسه بعد أن وجد من الامور ما أثقل كاهله ومن سلوك الناس ما أفقده الثقة بهـم ، ويمكن اعتماد الرواية التي ذكرت والناس يتحامونه كما يتحامون البعير الأجرب فيهذا التطرف وترك الدنيا.

لقد حاولت أن احدد هذه الاتجاهات التي وجدت نفسي ملزما بهـا وانا اقدم هذه النماذج القليلة من شعر هذا الشاعر وتبقى أطراف الدراسة بحاجـة الى استكمال لوازمها التي توضح حياتـه وترسم المعالم الواضحة التي اكتنفتها ، وهو جهد يمكن أن يضاف الى عملنا هـذا .. والله نسأل التوفيـق والهدايـة ..

الدكتور نوري حمودي القيسي

١ /محرم /١٣٠٩

١٣ آب ١٩٨٨

[١]

قال عبدالله بن عبد الاعلى العبدي ..

١ ـ ومستنبح لهفـــان يضربه الندى وتسفي عليـــه شمال وجنوب

٢ ـ وقد أعشت الظلماء أنجم ليلـــه وزّرت عليـــه للغمـام جيوب

٣ ـ طوى السيرَ عمري ليلَه ونهاره ففـي أخمصيه للدؤوبِ ندوب

٤ ـ يُعاوره خوف الأعادي نهـــاره وخوف المنايا الليل فهو كئيب

٥ ـ رفعتُ له حمراء أخرقَ نورها قميص الدجى اذ طار فيه لهيب

٦ ـ اذا السنالنيران اخرسنَ ضنة فالســـنها مســـتحضر وخطيب

٧ ـ وجاوبَ عنهـا من حكاه بصوته ولو لم يجب كان اللهيبُ يجيب

٨ ـ واقبل قد ألقـى الحذار وراءَه وبشّرَ نفساً مـا تكـــاد تطيب

٩ ـ فحييت محبـوباً واخزيتَ بكرة لهـــا تامك عالي البنـاء قتيب

١٠ـ عدا السيف فيها طوره فجرانها زميل بمـا تحت الجران خضيب

١١ـ فخرّتووليّ البزلُ عنهانوافراً لهـن عليهـا أنّـةٌ ونحيب

١٢ـ فبـات له مـن كبدها وسنامها طعامان كـل من يديـــه قريب

١٣ـ والكلب لما أن هداه الى القرى نصيبٌ وللنـور الدليل نصيب

١٤ـ تشارك فيها الضيف والكلب والصدا وكل الى قلب الكريم حبيب

١٥ـ وهاتيك عاداتي وعادةُ والدي وجدّي وانـي بعـد ذاك مصيب

[٢]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى الشيباني في أخلاق كـل جديد ومصير كلّ بني أمّ الى الموت ..

كلُّ حـي ذي اجتماعٍ رهْنٌ بـَين وشتَاتِ

---

١ ـ الابيات (١ـ١٥) في الحماسة البصرية ٢/٢٣٤ـ٢٣٥ .

٢ ـ البيت في حماسة البحتري /٢٠٩ .

[٣]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى فيما قيل في مصير الكثرة الى القلة .

(مجزوء الرمل)

ليس آت ببعيد بل قريب ما سيأتي

[٤]

كان عمر بن عبدالعزيز كثيرا ما ينشد شعر عبدالله بن عبد الاعلى القرشي :

١ - تجهزي بجهاز تبلغين به
يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

٢ - وسابقي بغتة الآجال وانكمشي
قبل اللزام فلا منجى ولا غوثا

٣ - ولا تكُدي لمن يبقى وتفتقري
ان الردى وارث الباقي وما ورثا

٤ - واخشي حوادث صرف الدهر في مهل
واستيقني لا تكوني كالذي انتجثا

٥ - عن مُدية كان فيها قطعُ مدّته
فوافق الحرث موفوراً كما حرثا

٦ - لا تأمني فَجعَ دهر مورط خَبَل
قد استوى عنده ما طابَ أو خَبُثا

٧ - يا رُبَّ ذي أمل فيه على وَجل
أضحى به آمناً أمسى وقد جُثثا(١)

---

٣ - البيت في حماسة البحتري /٢٢٩ .

٤ - الابيات (١-١٠) في أمالي القالي ٣١٩/٢ والابيات (٨،٩،١٠،١١) مع اختلاف في الرواية وتسلسل الابيات وبلا نسبة في كامل المبرد ٥٩٢/٢ وبهجة المجالس ٣٢٤/٢، وينظر تخريجها في السمط ٩٦٢/٢، ٩٦٣ .

(١) جثث : فزع .

٨ ـ من كان حين تُصيبُ الشمس جبهتَه
أو الغبارُ يخافُ الشَّينَ والشَّعثا

٩ ـ ويألَفُ الظلَ كي تبقى بشاشتُه
فسوفَ يسكن يوماً راغماً جَدَثا

١٠ـ في قعرِ موحشةٍ غبراءَ مُقفِرةٍ
يطيلُ تحت الثرى في رَمسِها اللُّبثا

[٥]

وعبدالله بن عبد الاعلى هو الذي يقول :

من هُنا لي من صَديقٍ فَليَعُد
ليَعُدني انني اليومَ كَمِدْ
من همومٍ تركتني قَلِقاً
قَلَقَ المحورِ بالقُتَّ المُسَدْ
ليت شعري وليت نبوة
أين صارَ الروح مُذبان الجَسَدْ
بينما المرءُ شهاب ثاقب
ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمَدْ
أو لبيب استوى حُنكَتُه
مُوفيَ المرَّةِ مأمونَ العُقَدْ
غالَهُ الدهر وغَطَّى حَزْمَهُ
وانتضاه من عديد وَلَدْ

---

٥ ـ الابيات في البرصان ٨٣ـ٨٤ .

[٦]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى القرشي اسلامي ، وأنشدها عبدالملك بن مروان عند وفاته لبنيه :

١ ـ انفوا الضغائنَ والتخاذل عنكمُ
عند المغيب وفي الحضور الشُهَّد

٢ ـ بصلاح ذات البين طول بقائكم
ان مد في عمري وان لم يمدد

٣ ـ ان القداح اذا جُمعْنَ فرامها
بالكَسر ذو حَنَق وبطش أيَّد

٤ ـ عَزَّت فلم تكسر وان هي فُرِّقت
فالوهن والتكسيرُ للمتبدِّد

٥ ـ فبمثل هذا الدهر ألِّف بيننا
بتواصل وتراحم وتودد

[٧]

قال عبدالله بن عبد الاعلى :

يا ويح هذي الارض ما تصنعُ لكلِّ حيٍّ فوقها مَصرَعُ
تزرَعُهم حتى اذا ما أتوا عادَت لهم تَحصُدُ ما تزرع

---

٦ ـ البصري ، الحماسة البصرية ٢ـ٣٢ .

٧ ـ البيتان في البرصان /٨٤ .

وهما في السمط ٢ـ٩٦٣ ورواية الاول .. اكلَّ حي فوقها تصرع .

[٨]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى في المطامع التي تذل أصحابها :

(الطويـل)

١ـ ويطمعُ فيما سوفَ يهلِكُ بَعدَه وكم من حريص أهلكته مَطامعه

[٩]

ولما توفي أيوب بن سليمان بن عبدالملك في حياة سليمان ، وكان ولي عهده وأكبر ولده ، رثاه ابن عبد الاعلى وكان من خاصته فقال فيه :

١ ـ ولقـد أقـول لـذي الشـماته اذ رأى
جَزَعـي ومـن يَذُق الحوادثَ يَجزعِ

٢ ـ أبشـرِ فقـد قـرع الحـوادثُ مَروَتـي
وافـرحْ بمروَتـك التـي لـم تُقـرَعِ

٣ ـ ان عِشـتَ تُفجـع بالاحبـةَ كلّهـم
أو يُفجعـوا بكَ ان بهـم لم تُفجَـعِ

٤ ـ أيُّـوبَ مـن يَشمَت بموتِـك لـم يُطِـق
عـن نفسـه دَفْعـاً وهـل مـن مَدفَـعِ

[١٠]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى :

يا ليت ذا خبر عنهـم يُخبِّرُنـا بل ليتَ شـعري ماذا بعدنا فعلوا
كنّـا وكانوا فما ندري علـى وهم أنحنُ فيما لَبِثنا أم همُ عَجِلوا

---

٨ ـ البيت في حماسـة البحتري /١٣٤ .

٩ ـ الابيات في العقـد الفريد ٣ـ٢٥٧ .

١٠ـ البيتان في اللسان [كون] واستشهد بها على (كان) التي تأتي بمعنى مضى وانقضى ، أي نحن ابطأنا .

[١١]

وقال عبدالله بن عبد الاعلى القرشي :

١ ـ نهارُك يا مغرورُ سهو وغفلة
وليلُك نوم والردى لك لازم

٢ ـ تُسر بما يَبلى وتفرحُ بالمُنى
كما غرّ باللذات في النوم حالمُ

٣ ـ وسعيُك فيما سوف تكره غِبّه
كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

٤ ـ فلا أنت في الايقاظ يقظان حازم
ولا أنت في النَّوام ناج فسالمُ

[١٢]

يقال ان عمرو بن عبيد أتى يونس بن عبيد يُعزّيه عن ابن له ، فقال له : ان أباك كان أصلَك وان ابنك كان فَرعك ، وان امرءا ذهب أصله وفرعه لَحريٌّ أن يقلّ بقاؤه .. وقيل ان عبدالله بن عبد الاعلى أخذ هذا المعنى فقالَ :

صَحبتُك قبلَ الروح اذ أنا نُطفة ... تُصان فما يبدو لعين مَصونها
أرى المرءَ دَينا للمنايا ومالَها ... مِطال اذا حلّت بنفس دُيونُها
فماذا بَقاء الفرع من بعد أصله ... سَتلقى الذي لاقى الاصول غصونُها

١١ـ الابيات في الحماسة البصرية ٢ـ٤٢٧ وعدا الرابع مع اختلاف في الترتيب والرواية بلا نسبة في عيون الاخبار ٢/٣٠٩ ونسبت في العمدة ١/٣٧ الى عمر بن عبدالعزيز وهي من الاوهام .

(٩)، (١٠) والبيتان في اللسان [كون] واستشهد بها على (كان) التي تاتي بمعنى مضى وانقضى ، أي نحن ابطأنا .

١٢ـ الابيات في أمالي المرتضى ١ـ١٧١ .